الحياة المكرّسة:
رجاءٌ يوقظ العالم على كلمة الله

الشكرُ لله، الذي دعانا لنقتفي خطاه، في مختَلِف أشكَالِ الحياةِ المكرَّسَة؛ وللحبرِ الأعظم، قداسةِ البابا فرنسيس، الذي حَبانَا هذا العام، ليكونَ زمنَ نعَمةٍ لكلِّ الكنيسة، وبخاصّةٍ لكلِّ المكرّسين.

اليوم، العديد من "سكّان العالم الفارغ"، لديهم الانطباع بأن الله هجر العالم والتاريخ، وقد أصبح إلهًا غائبًا. ومن بين هؤلاء الناس، عددٌ لا يُستهانُ به من المكَرَّسين. لا يوجد بؤسٌ أسوأ من التفكير بأنّ لا أحد يسهر علينا ولا من ينتظرنا بمصباحه المشتعل؛ وأنّ الذي كرّسنا له حياتنا كلّها، يجتاز الآن أمامَ خِباءِنا ونحن عاجزون عن تقصِّي آثارِه (أي ٢٩: ٢-٥).

في هذا الجوِّ من التخلّي، تولد حياةٌ هامِدَةٌ، تَعِبَة ومُبتَذَلة، يُسيطرُ عليها التواني، الذي يتربّصُ به نوعٌ من فقدانٍ للذاكِرَة يمحو من الحافِظَةِ "الأيّامَ الخوالِي" التي تكلّم عليها أيّوب، والتي كان الله فيها "يسكن معهم"، و"يحرسهم"، و"سراجهُ يُضيءُ فوقَ رُؤسِهِم"... وقد ينتهي الأمرُ بالاعتقادِ أنّ وعود الله، التي على أساسِهَا تركنا كلَّ شيءٍ لنتبعَهُ، لم تَعُدْ إلاّ "حُلمًا جميلاً" (راجع إر ٣١: ٢٦)، وأنَّهُ من الأفضلِ أن نستمرَّ في الحاضر، دون طلب الكثير لبقائِنَا في الوجود.

كانت هذه قناعة المنفيّين الذين عاشُوا في بابل: كان الماضي أفضل، لأنَّهم كانُوا يؤمِنُون بالله، ولا شيء كان بإمكانه أن يُبدِّلَ الوضعَ الحالي. لكن في وَسْطِهِم، كان هناك نبيٌّ لم يتأقلَم، وعارضَ بِعِنَادٍ إغفال الشعب لعجائبِ الربّ: إنَّهُ أشعيا الثاني. هذا هو النبيّ الذي اتُّهِمَ بالجُنونِ، حتَّى من ذوي قُرباه، وبأنَّه ساذجٌ وحالِمٌ. ولكن، جاء يومٌ تجرَّأَ فيهِ أن يَقِفَ وسطَ شعبٍ وَانٍ، مُستكِينٍ ومُتَكَدِّرٍ، ويَصرُخ: "هوذا الربُّ آتٍ!" إنسَوا أسماءَ صهيونَ القديمة – "البائسَة"، "المهجورة"، و"الخَرِبَة" – أُخرجُوا من بابِل!، فالآنَ يبدأُ الخروجُ الحقيقيُّ، هيا اعبُرُوا! (راجع أش ٦٢: ١-٥).

يُخبِرُنا يوحنّا، في بداية إنجيله، عن عرسٍ في قانا الجليل نفدَ فيهِ الخمر (يو ٢: ١-١٢). العرس والزواج علامتان للعهد بين الله وشعبه. كونه عرسًا يهوديًّا، يتحدّث النصّ الإنجيليّ عن العهد القديم بين الله وشعبهِ إسرائيل. من ناحيةٍ أخرى، العنصر الجديد الذي يدور حولهُ الحدثُ هو نفاد الخمر. الخمر هي رمزٌ للحبّ بين العروسَين، بين الله وشعبه. ترمز أيضًا إلى الفرح والحياة في هذا العهد، الذي فُسِخَ لأسباب متعدِّدة: نفدَ الخمرُ/الحُبّ والخمرُ/الحياة وحلّت مكانه "التقاليد البشريّة" التي احتلَّت مكان إرادة الله. الأمر ليس بنفاد الخمر، بل هُم "ليس لديهم خمر". الأسوأ هو أنَّ، الزوجَين/فَرِيقَي هذا العهد، يجهلان تمامًا المأساة التي يعيشانِها. في هذه الظروف، "الخدم"، هم الذين يستنكرونَ الوضعَ ويلتجأون لمن يمكنه أن يَسُدَّ النقص:

إلى يسوع، من خلال أمّه. وهكذا يولَدُ الحب والحياة من جديد، ولا يتعطَّل الاحتفال؛ وخمر العهد الذي افتتحهُ يسوع هو "الأجوَد" من الأوّل. كان الاحتفالُ بحاجةٍ إلى "الخَدَم"، كي يَسترجِعَ، العهدُ بين الله والإنسان، رونَقَهُ وحَافِزَ وجودِهِ.

تجدُ الحياةُ المكرَّسة علَّةَ وجودِهَا في عهدِ حُبٍّ بين يسوع الذي يدعُو لاتِّباعِهِ، والرجل أو المرأة اللذَين يُجيبانِ بالإيجابِ على ندائهِ. إنّها دعوةٌ، مثلَ أيِّ شكلٍ من أشكال التلمذة، تنطلقُ من حبّ المسيح – "نظرَ إليه وأحبّه وقال له: اتبعني" (مر ١٠: ٢١) – وتميل إلى التماهِي الكلّي معه، والنضوج في الحبِّ المُنَزَّهِ عن المصلحةِ الشخصيّة: المحبوبُ يتماثَلُ مع الحبيب، إلى أن "يتبنّى مشاعِرَهُ نفسَهَا" (راجع فل ٥: ٢). لذا، تفقِدُ الحياةُ المكرَّسةُ معناهَا إن نَفدَ فيها "الخمر"، أي نضارةُ الحُبِّ؛ تَفقِدُ مدعَاةَ وُجودِهَا، تمُوت. فلا التقاليد البشريَّة، ولا أيّ شكلٍ من أشكالِ القانون أو حفظِهِ حرفيًّا، يمكنه أن يقومَ مَقَامَ "الخمر" التي تُروِي حياةَ ورِسَالَةَ المكرَّس، ألا وهي الحُبّ.

أيقِظُوا العالم! هذا ما يطلُبهُ البابا فرنسيس من المكرّسين، أو – بتعبيرٍ آخر مماثِل – إنهضُوا – كما جاء في أشعيا الثاني – واصرخوا إلى أولئكَ الذين فقدُوا الأملَ بالخروجِ من بابِل، سِيروا، فالله أمامنا. أيقظوا العالم كخدّامٍ للإنجيل، وتذكَّروا الذينَ يعيشونَ إيمانَهم بوجهٍ عابس، وكأنّهم في حالةِ جنازةٍ أو صومٍ دائمٍ، دون آفاقِ الفصح التي تمكِّنُ المكرَّسَ من استردادِ "خمر" الحبّ، وفرحِ حياتهِ، كما في الأيَّامِ السالِفَة، التي يتكلّمُ عليها أيّوب، فيعيشَ علاقَتهُ بالله بوجهٍ مُشرِق.

نعم، أيّها الإخوةُ والأخواتُ المكرّسون! معاصرونا يحتاجونَ إلى أنبياءٍ، كأشعيا الثاني، يَمَسُّونَ القلبَ ويوقظونَ العالم. ومَن يستطيعُ أن يوقِظَ "العملاقَ النائم" أفضل من المكرَّسين، الذين أُوتُوا الرسالةَ ليكونوا، في كلِّ آنٍ، أنبياءَ الرجاءِ، حرَّاسَ الفجرِ، منارة السواحِل، والأبواق على الجدران؟ لذا، أوّل من يجب أن يستيقظ هم المكرّسون أنفسهم. نحنُ أيضًا نحتاجُ إلى سماعِ كلماتٍ مُفعَمَة بالرَّجاء، كلماتٍ لا تأتي إلاّ من عندِ الربّ وحده. نحن بحاجةٍ إلى الاستيقَاظِ من السبات الذي يربطنا بِ "بَابِلِنَا" القديمة. نفتقِرُ إلى أن نطرحَ جانبًا الخطابَ الجنائِزيّ الذي يؤولُ بالمتكلِّمِ وبالسَّامِعِ إلى الإحباط. يجبُ علينا التأهُّبُ لاستقبالِ البُشرى السارَّة أنَّ الله الذي ظننَّاهُ بعيدًا، يَنصِبُ خيمَتَهُ بينَنا، ليسِيرَ معنا، وَهوَ يُرَدِّدُ باستمرار: "لا تخافُوا، أنا معكُم". نفتَقِرُ إلى "الخمر الجديدة"، التي منها تنبَعِثُ: الحياةُ حيثُ الموت؛ الرجاءُ حيث اليأس؛ الفرحُ حيث الكآبة؛ والعطاءُ دونَ حساب، ميزَةُ الأحبَّاءِ حينَ تظهَرُ الضحَالَة.

سَنَةُ الحياةِ المُكرَّسَة عليها أن تكونَ كالتالي: يقظَةً للمكرَّسينَ أنفسهم، ومسيرةً تُحَفِّزُ الحياة المكرَّسة على إحياءِ رجاءِ العَالم. "إفعلوا ما يأمركم به" (يو ٢: ٥)! لنسمعِ اليومَ هذه الكلمات من فمِ مريم بثقَةِ الخدّامِ، ولنعمَل دونَ إبطاء. فالمعجِزَةُ لا تنتَظِر، لأنَّ "الخمر" الأخيرة ستُصبحُ أفضلَ من الأولى.

"إفرحوا – قال يسوع – لأنَّ أسماءَكُم مكتوبةٌ في السماء" (لو ١٠: ٢٠). وما هو اسمُكُم الأصيل؟ لنسمَع ما تقولُهُ لنا كلمةُ الله: "أنتم طينٌ في يدِ الخزَّاف" (راجع إر ١٨: ٦). وهذا يعني أنَّهُ، بالرغمِ من تقدُّمِ العمر، لا نزالُ نستطيع أن نُصاغَ ونتجدّد، لأنّ الربّ قادرٌ على أن يجعلَ منّا آنيةً جديدة وجميلة. يكفي أن نَدَعهُ يُعيد صوغَنا. فَلْنَدَعْهُ يجبِلُنَا من جديد! "أنتم حقل الله، بناءُ الله" (١ كور ٣: ٩)، ولذا، أنتم موضوعُ شفاءاتِ الزَّارعِ المحِبّ، ألا وهو الله. لسنا وحدنا، ولم نُترَك أسرى مصِيرِنا. لأنّ الله يتابعُ عملَهُ ويفعلُ كلَّ ما هو ممكنٌ لنعطي نتائج جيّدة، كالكرّام الذي يتحدّث عنه النبي أشعيا (راجع أش ٥: ١-٧). لكنَّ العِمدَةَ علينا، كي لا يجدَ الكرَّامُ حِصرِمًا في زمنِ الحصاد. لننموَ إذن! وإن دعتِ الحاجة، لِنَتَقَلَّمَ فنعطيَ ثمارًا وافرة!

"دعاكُم الله إلى شِركَةِ ابنه" (١ كور ١: ٩) وهذا يعني أنَّ يسوعَ يوقظُ فينا ديناميَّةً قادرة على هدمِ نَزَعاتِ قلوبِنا القديمة: الارتياب، الكآبة، الموت، اللامبالاة...هو يأتي ليغمرَ ظلماتِنا بالنُّور، ليُشعِلَ النارَ في قلوبِنا الباردَة مِنَ الإحباط (راجع لو ٢٤: ١٣ وما يلي). لندَع قلوبَنا تشتَعِل لدى سماعِنا كلمةَ الله!

تجسُّدُ المسيح يجعلنا نتأمّل بالإله الذي يبحَثُ عن مكانِ إقامة. لنَكُن، كمريم، منزلاً مفتوحًا لاستقبال ذاكَ الآتي ليخلِّص ويفدي شعبه. وإن نفدَ "الخمر"، مريم، أمُّ العهد الجديد، أمّ الكنيسة والمكرّسين، تعرضُ وضعَنا على يسوع، وبواسطتها تنتعِشُ هِبَةُ الله المحفوظَة فينا لنشهدَ ونقولَ كأنبياءِ الله: أجَل يُمكننا أن نُوقِظَ العالم!

الأخت دولّي شعيا ر.ل.م.